﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النّور: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـرُ تمكينِ المُخلِصينَ، بعدَ ذِكْـرِ أحـوالِ المُنافقينَ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ، منها: أنَّهُ سبحانَهُ ذكرَ المُخلِصينَ بعدَ ذكرِ المنافقينَ[1]، ومنها: أنَّ الآيةَ مُقرِّرةٌ لِما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ مِنَ الوعدِ الكريم، ومُعربةٌ عنهُ بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنةٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيهِ مِنْ فُنونِ السَّعاداتِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتي هي مِنْ آثارِ الاهتداءِ، ومُتضمِّنةٌ لِما هو المرادُ بالطّاعةِ الَّتي نيطَ بها الاهتداءُ[2]، ومنها: أنَّهُ انتُقِلَ إلى هذا الكلامِ بمناسبةِ التَّعرُّضِ إلى أحوالِ المنافقينَ، الَّذينَ أبقاهُم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المسلمينَ، وخشيتُهم ألّا يستقرَّ بالمسلمينَ المُقامُ بالمدينةِ، حتَّى يغزوهم المشركونَ، أو يُخرِجَهم المنافقونَ حينَ يجدونَ الفُرصةَ، فكانوا يُظهرونَ الإسلامَ اتِّقاءً مِنْ تمامِ أمرِ الإسلامِ، ويُبطِنونَ الكفرَ معاونةً لأهلِ الشِّركِ، معَ ما لهذا الكلامِ مِنَ المناسبةِ معَ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوهُ؛ تَهْتَدوا، وتُنْصَروا، وتَأْمَنوا[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾: (خلف) أصولٌ ثلاثةٌ، أحدُها: خِلافُ قُدّامٍ، والثّاني: التَّغيُّرُ، ومنهُ قولُهم: أَخْلَفَ فوهُ؛ إذا تغيَّرَ، والثّالثُ:

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 515.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.

أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَهُ[1]، ومِنْ ذلكَ: الخِلْفةُ، يقالُ في أنْ يَخْلُفَ كلُّ واحدٍ الآخرَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: 62]، ويقالُ: خَلَفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا قامَ بالأمرِ عنهُ، إمّا معَهُ وإمّا بعدَهُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّخرف: 60]، والخِلافةُ: النّيابةُ عنِ الآخرِ، إمّا لغَيبةِ المَنوبِ عنهُ، وإمّا لموتِهِ، وإمّا لعَجْزِهِ، وإمّا لتشريفِ المُستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّهُ أولياءَهُ في الأرضِ، قالَ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39][2].

2) ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: المكانُ: الموضعُ الحاوي للشَّيءِ، قالَ تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه: 58]، ويقالُ: مَكَّنْتُهُ، ومكَّنتُ لهُ، فتمكَّنَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[3]، وتمكينُهُ: تثبيتُهُ وتوطيدُهُ[4]، ومكَّنَه اللّهُ منَ الشَّيءِ، وأمكنه منه بمعنًى، واستمكن الرَّجلُ منَ الشَّيءِ، وتمكَّن منه بمعنًى، وفلانٌ لا يمكنه النُّهوضُ، أي: لا يقدر عليه[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 6]، معناهُ: ملَّكْناهم وجعَلْناهم متمكِّنينَ مِنَ المكانِ الَّذي ولَّيْناهُم إيّاهُ، أي: قوَّيْناهم، مِنْ تمكَّنَ فلانٌ مِنْ كذا؛ إذا قَدَرَ عليهِ، وأطاقَهُ[6]، وهو المعنى المراد في الآية.

3) ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: (رضا) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على خِلافِ السُّخْطِ[7]، ورِضا العبدِ عنِ اللّهِ: ألّا يكرهَ ما يَجْري بهِ قضاؤُهُ، ورِضا اللّهِ عنِ العبدِ: هو أنْ يراهُ مُؤْتَمِرًا لأمرِهِ، ومُنتهيًا عن نَهْيِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، وقالَ: ﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 18][8]، والمعنى المراد من ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾: اختار، ورضي لهم.

4) ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾: (بدل) قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذّاهبِ[9]، فالإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّلُ والاستبدالُ، جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وقد يقالُ: التَّبديلُ للتَّغييرِ مُطلَقًا، وإنْ لم يُؤْتَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (مكن).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رضي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدل).

بدلِه، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[1]، وتبديلُ الشَّيء أيضًا: تغييرُهُ، وإن لم يأتِ ببدل، واستبدل الشَّيء بغيره، وتبدَّله به؛ إذا أخذه مكانَهُ، والمُبادَلة: التَّبادل[2]، والمُرادُ بالآية: تغييرُ الحال منَ الخوف إلى الأمن.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُجازَى الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ بالاستخلاف والتَّمكين والأمن

وعدَ اللّهُ الَّذينَ جَمَعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ أنَّهُ يجعلُهم الخُلَفاءَ والغالبينَ والمالِكينَ في الأرضِ، كما استخلفَ عليها مَنْ قبلَهم، وأنَّهُ يُمكِّنُ لهُم دينَهم بتأييدِهم بالنُّصرةِ والإعزازِ، ويُبدِّلُهم مِنْ بعدِ خوفِهم مِنَ العدوِّ أمنًا، بأنْ يَنْصُرَهم عليهِم، فيقتُلوهم، ويأمَنوا بذلكَ شَرَّهم، فيعبدوني آمِنينَ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا، ولا يخافونَ، ومَنْ كفرَ بعدَ هذا الوعدِ؛ فأولئكَ هم الفاسقونَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الجملةُ استئنافٌ مُقَرِّرٌ لِما قبلَهُ، مفيدٌ في البيان

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مُقَرِّرٌ لِما في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ منَ الوعدِ الكريمِ، ومُعْرِبٌ عنهُ بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيهِ مِنْ فُنونِ السَّعاداتِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، الَّتي هي مِنْ آثارِ الاهتداءِ، ومُتضمِّنٌ لِما هو المرادُ بالطّاعةِ الَّتي نيطَ بها الاهتداءُ[4]، وقيلَ: هو استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتُقِلَ إليهِ بمناسبةِ التَّعرُّضِ إلى أحوالِ المنافقينَ الَّذينَ أبقاهم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المسلمينَ، وخشيتُهم ألّا يستقرَّ بالمسلمينَ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بدل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بدل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 412.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.

المقامُ بالمدينةِ، حتَّى يغزوَهم المشركونَ، أو يُخرِجَهم المنافقونَ حينَ يجدونَ الفُرصةَ، فكانوا يُظهِرونَ الإسلامَ؛ اتِّقاءً مِنْ تمامِ أمرِ الإسلامِ، ويُبطِنونَ الكفرَ؛ معاونةً لأهلِ الشِّركِ[1].

عِلَّةُ تصديرِ الآيةِ بالوعدِ:

تبشيرُ المُخاطَبينَ، وحثُّهم على الاستعدادِ منَ البيانِ المُستفادِ

يدلُّ تصديرُ الآيةِ بالوعدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على تبشيرِ المُخاطَبينَ، وحثِّهم على الأخذِ بأسبابِ حصولِ الوعدِ لهُم؛ لأنَّ الوعدَ بِشارةٌ بخيرٍ لم يأتِ زمنُهُ بعدُ[2]، "فإنَّه وعَدَ مَن قام بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ من هذه الأمَّة، أن يستخلفَهم في الأرضِ، يكونون هم الخلفاءَ فيها، المُتصرّفين في تدبيرها، وأنَّه يُمَكِّنُ لهم دينَهم الَّذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام"[3]، ولا جَرَمَ فإنَّ وعْدَ اللهِ لا يتخلَّف؛ لأنَّه تعالى لا يُخْلِف الميعاد، ومَن أخذ وعدًا بالتَّمكين منَ اللهِ؛ بلغ غايتَهُ، وحقَّق مُناه، وحصَّل المأمولَ في دنياه وأُخراه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿وَعَدَ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الوعدِ وتيقُّنِه

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على أنَّ هذا الوعدَ الكريمَ مِنَ اللهِ ﷻ مُتحقِّقٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وقد سبقَ في حُكمِ اللهِ وقضائِهِ، وفي ذلكَ مزيدُ ترغيبٍ للمُخاطَبينَ في الأخذِ بأسبابِ حصولِهِ لهُم، بالاستزادةِ مِنَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، اللَّذَينِ جُعِلا عُنوانًا لهُم.

نُكْتَةُ إسنادِ الوعدِ إلى لفظِ الجلالةِ:

تأكيدُ صِدْقِ الوعدِ، بإسنادِه إلى اللهِ جلَّ في عُلاه

أُسنِدَ الوعدُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ تأكيدًا لحقّيَّةِ الوعدِ وصِدْقِهِ؛ لأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 281.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10318.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 573.

ما دامَ الوعدُ مِنَ اللهِ الَّذي لهُ صفاتُ الجلالِ والكمالِ، فهو صِدْقٌ، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النّساء: 122] وقالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 111]، والَّذي يُفسِدُ على النّاسِ وُعودَهم، ويَجُرُّ عليهم عدمَ الوفاءِ كونُ الإنسانِ مُتغيِّرًا بطَبْعِهِ مُتقلِّبًا، فقد يَعِدُ إنسانًا بخيرٍ، ثمَّ يتغيَّرُ قلبُهُ عليهِ، فلا يَفي لهُ بما وعدَ، وقد يأتي زمنُ الوفاءِ، فلا يَقْدِرُ عليهِ، أمّا الحقُّ تباركَ شأنُهُ؛ فلا يَتغيَّرُ أبدًا، وهو سبحانَهُ قادرٌ على الوفاءِ بما وعدَ بهِ، فليستْ هناكَ قوَّةٌ أخرى تمنعُهُ، فهو سبحانَهُ واحدٌ، لا إلهَ غيرُهُ، ولذلكَ يكونُ وعدُهُ ﷻ ناجزًا[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الصِّلةَ سببُ الوعدِ الموقَن في السّياق المُعْلَن

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما في حيِّزِ الصِّلةِ، سببُ هذا الوعدِ المُؤكَّدِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: وعدَهم اللهُ بالاستخلافِ وما عُطِفَ عليهِ؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، والموصولُ عامٌّ لا يختصُّ بمُعيَّنٍ، وعمومُهُ عُرْفيٌّ، أي: غالبٌ، فلا يَضرُّ ما يكونُ في الأمَّةِ مِنْ مُقصِّرينَ في عملِ الصّالحاتِ، فإنَّ تلكَ المنافعَ عائدةٌ على مجموعِ الأمَّةِ[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ مِنَ المُخاطَبينَ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الإيمانَ وعملَ الصّالحاتِ أمرانِ ثَبَتا، وتحقَّقا مِنَ المُخاطَبينَ الموعودينَ، وأنَّ لهُم قَدَمَ صِدْقٍ وسَبْقٍ فيهما، حتَّى صارا بمنزلةِ صفاتِهم الذّاتيَّةِ الجِبِلِّيَّةِ، الَّتي تُجعَلُ عُنوانًا لتعريفِهم.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10318.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 283.

معنى (مِنْ) في شبه الجملة: ﴿مِنكُمْ﴾:

المؤمنونَ موعودونَ بالاستخلاف، عمومًا وخصوصًا

الظّاهرُ أنَّ (مِنْ) - في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - بيانيَّةٌ[1]، أي: الَّذينَ هم أنتُم؛ لأنَّ المُخاطَبينَ هم المؤمنونَ، فلا يَصلُحُ أنْ تكونَ كلمةُ (مِنْ) للتَّبعيضِ، وفائدةُ البيانِ زيادةُ التَّمكُّنِ في الذِّهنِ[2]، وقيلَ: (مِنْ) للتَّبعيضِ، والمرادُ: المهاجِرونَ منهُم، فإنَّهم هم الخُلَفاءُ المُستخلَفونَ في الأرضِ[3].

نُكْتَةُ توسيطِ ﴿مِنكُمْ﴾ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ:

بين آيتي (النّور) و(الفتح) اختلافٌ، يدلُّ على دِقَّة السّياق وبلاغته

وُسِّطَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وأُخِّرَ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح: 29]، وقد اختُلِفَ في سِرِّ ذلكَ، فقيلَ: التَّأخيرُ في آيةِ الفتحِ دلَّ على أنَّ وعدَ اللّهِ تعالى بالمغفرةِ والأجرِ العظيمِ، مُسبَّبٌ عن إيمانِهم المُقترنِ بالأعمالِ الصّالحاتِ؛ لأنَّ الاتِّصافَ بهما مناسبٌ؛ لأنْ يكونَ علَّةً للمغفرةِ والأجرِ العظيمِ، وتوسيطُهُ في آيةِ النّورِ دلَّ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ في الاعتبارِ، وأنَّ الأعمالَ كالتّابعةِ لهُ، فتأثيرُ العملِ الصّالحِ في الاستخلافِ دونَ تأثيرِهِ في إثباتِ المغفرةِ والأجرِ العظيمِ[4]، وقيلَ: قُدِّمَ هذا القيدُ اهتمامًا بهِ[5]، وقيلَ: توسيطُ ﴿مِنكُمْ﴾ بينَ المعطوفينِ؛ لإظهارِ أصالةِ الإيمانِ وعَراقتِهِ، في استتباعِ الآثارِ والأحكامِ، وللإيذانِ بكونِهِ أوَّلَ ما يُطلَبُ منهُم، وأهمَّ ما يجبُ عليهِم، وأمّا تأخيرُهُ عنهما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 112، والنَّسقي، مدارك التّنزيل: 2/ 515.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 436.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 395.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 132، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 396.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.

في آيةِ الفتحِ؛ فلأنَّ (مِنْ) هناكَ بيانيَّةٌ، والضَّميرُ للَّذينَ معَهُ ﷺ مِنْ خُلَّصِ المؤمنينَ، وهم جامعونَ بينَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحةِ، مثابرونَ عليهما، فلا بُدَّ مِنْ وُرودِ بيانِهم بعدَ ذكرِ نُعوتِهم الجليلةِ بكمالِها[1]، وقيلَ: وُسِّطَ ﴿مِنكُمْ﴾؛ لتعجيلِ ذِكْرِ مَسَرَّةِ المؤمنينَ؛ فإنَّ الآيةَ سيقَتْ لذلكَ[2]، ولأنَّ الإيمانَ هو الأصلُ الَّذي ينبني عليهِ الاستخلافُ، وهو مُستلزِمٌ للعملِ الصّالحِ؛ إذا تحقَّقَ، ولا شكَّ أنَّ المرادَ الإيمانُ المُحقَّقُ، فالعملُ الصّالحُ فرْعُهُ؛ ولذلكَ أَخَّرَهُ[3].

تعيينُ المُخاطَبِ في قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾:

الخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ ولمَنْ معَهُ

الخطابُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، لرسولِ اللهِ ﷺ، ولمَنْ معَهُ[4]، وقيلَ: المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلُّ منِ اتَّصفَ بالإيمانِ بعدَ الكفرِ على الإطلاقِ، مِنْ أيِّ طائفةٍ كانَ، وفي أيِّ وقتٍ كانَ، لا مَنْ آمنَ مِنْ طائفةِ المنافقينَ فقط، ولا مَنْ آمَنَ بعدَ نزولِ الآيةِ الكريمةِ فحَسْبُ، ضرورةَ عمومِ الوعدِ الكريمِ للكُلِّ كافَّةً، فالخطابُ في ﴿مِنكُمْ﴾ لعامَّةِ الكَفَرةِ، لا للمُنافقينَ خاصَّةً[5]، وهو خِلافُ الظّاهرِ[6].

دلالةُ عطفِ (العملِ الصّالحِ) على (الإيمانِ):

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، لا ينفكُّ أحدُهما عنِ الآخر

قولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمقصود: "الَّذين جمعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، أن يستخلفَهم في الأرضِ، فيجعلَهُمُ الخلفاءَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392، أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 9.
(3) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 9.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 515.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 392.

والغالبين والمالكين، كما استخلف عليها مَن قبلهم في زمن داود وسليمان ﷺ وغيرهما"[1]، وقد قيلَ في سِرِّ هذا العطف: إنَّ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ داخلٌ معَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ في حيِّزِ الصِّلةِ، وبهِ يتمُّ تفسيرُ الطّاعةِ الَّتي أَمرَ بها، ورتَّبَ عليها ما نُظِمَ في سِلْكِ الوعدِ الكريمِ[2]، وقيلَ: عَطفُ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ؛ لأنَّهُ تصديقٌ لهُ[3].

دلالةُ (أل) في لفظ: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للاستغراقِ، أي: عَمِلوا جميعَ الصّالحاتِ، وهي الأعمالُ الَّتي وصفَها الشَّرعُ بأنَّها صلاحٌ، واستغراقُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استغراقٌ عُرْفيٌّ، أي: عَمِلوا مُعظمَ الصّالحاتِ ومُهِمّاتِها ومَراجعِها، ممّا يَعودُ إلى تحقيقِ كلّيّاتِ الشَّريعةِ وجَرْيِ حالةِ مجتمعِ الأمَّةِ، على مَسْلَكِ الاستقامةِ[4].

لفظُ الصّالحاتِ دالٌّ على استغراقٍ عرفيٍّ لكلِّ الأعمالِ الصّالحةِ

سِرُّ جمعِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في إيرادِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مجموعًا؛ إشارةٌ إلى أنَّ المُخاطَبينَ الموعودينَ بما ذُكِرَ، قد كَثُرَتْ خُطاهم في طُرُقِ الخيراتِ، وطَرَقوا مُختلفَ أبوابِ الأعمالِ الصّالحاتِ، مِنْ صيامٍ وصدقةٍ وحجٍّ ونحوِ ذلكَ، ولم يَقتصِروا على عملٍ واحدٍ، فالصّالحاتُ أنواعٌ كثيرةٌ، وهم قد حَرَصوا على أنْ يكونَ لهُم منها على اختلافِها وتنوُّعِها، أتمُّ النَّصيبِ وأوفاهُ، ولذلكَ أكرمَهم اللّهُ ﷻ بهذا الوعدِ الكريمِ.

الإشارةُ إلى سُلوكِ عاملي (الصّالحات) مُختلِفَ طُرُقِ الخيرِ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 14/ 437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 283.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

حـذفُ الموصوفِ في السّياق، من بليغ ما يُفيد في الكلام

حُذِفَ الموصوفُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقلْ: (وعدَ اللّهُ الَّذينَ آمَنوا منكُم، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ) إيجازًا، ولأنَّ الصّالحاتِ جمعُ صالحةٍ، وهي الفَعْلةُ الحَسَنةُ، وهي في الأصلِ صفةٌ جرَتْ مَجْرى الأسماءِ؛ لأنَّهم يقولونَ: (صالحةٌ) و(حَسَنةٌ)، ولا يُقدِّرونَ موصوفًا محذوفًا[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾:

أسلوبُ القَسَمِ ذو أثَرٍ في الدَّلالة المُتوخّاة

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للقَسَمِ[2]، والقَسَمُ محذوفٌ، تقديرُهُ: وعدَهم اللّهُ، وأقسمَ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم، ويحتملُ أنْ يكونَ قد نُزِّلَ وعدُ اللّهِ في تَحقُّقِهِ منزلةَ القَسَمِ، فتُلُقِّيَ بما يُتلقَّى بهِ القَسَمُ، كأنَّهُ قيلَ: أقسمَ اللّهُ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم[3]، بمعنى: أنَّه ليجعلنَّهم خلفاءَ مُتصرِّفين في الأرض تصرُّفَ المُلوكِ في مماليكهم، وهو جوابُ قسمٍ مُضْمَرٍ، تقديره: وعدهمُ اللّهُ، وأقسم ليستخلفنَّهم[4].

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾:

أحـرفُ التَّأكيدِ الـزّائـدة على الأصـول، ذاتُ أثرٍ في البيان

المرادُ بالاستخلافِ – في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ – جَعْلُهم خُلَفاءَ عنِ اللّهِ في تدبيرِ شؤونِ عبادِهِ، وأصلُ الكلامِ: لَيُخْلِفَنَّهُم في الأرضِ، والسّينُ والتّاءُ للتَّأكيدِ[5]؛ لأنَّ الاستخلافَ مِنَ اللّهِ، وفِعْلُهُ ﷻ لا يتخلَّفُ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 352.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 193، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 414.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 251، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 414.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 112.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 285.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5219.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الاستخلافَ أمرٌ موعودٌ بهِ، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبلِ، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغةِ.

الاستخلافُ أمرٌ مستقبليٌّ، يوعَد بـه باعتبار ما سيكون

نُكْتَةُ توالي المُؤَكِّداتِ في السّياق:

لمّا كانَ المقامُ للتَّرغيب في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أكَّدَ ﷻ وعدَهُ بالقَسَم، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ الدّاخلةِ على الفعلِ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، وبالمشابهةِ بينَهم وبينَ مَنْ سَبَقوهم، ممَّنْ جعلَهم خُلَفاءَ في الأرضِ[1].

مناسبةُ التَّأكيدِ لمقامِ التَّرغيبِ في الآية الكريمة

معنى ﴿فِى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بـ ﴿فِى﴾ الظَّرفيَّةِ، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، على أنَّ مكانَ استخلافِ المذكورينَ هو الأرضُ، أو أنَّ المعنى: لَنَجعلنَّهم بأجمعهم متصرِّفين في الأرض تصرُّفَ الملوكِ في مماليكهم، أو كاستخلاف بني إسرائيل حيثُ أُهلِكَ الجبابرةُ بمصرَ والشّام، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم[2].

الظَّرفيَّةُ المكانيَّةُ لـها أثـرٌ في الـدَّلالـة على مفاد السّياق

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في الآية الكريمة:

قيلَ: المرادُ بالأرضِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أرضُ الكفّارِ، وقيلَ: أرضُ المدينةِ[3]، وقيلَ: هي البلادُ الَّتي تُجاورُهم، وهي جزيرةُ العربِ، ثمَّ افتتحوا بلادَ الشَّرقِ والغربِ، ومزَّقوا مُلْكَ

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً مفيدٌ في البيان

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5220.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 6/ 550.
(3) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 2/ 515.

الأكاسرةِ، ومَلَكوا خزائنَهم، واستولَوا على الدُّنيا[1]، وقيلَ: الصَّوابُ أنَّ المرادَ مِنَ الأرضِ جميعُها، وأنَّ الظَّرفيَّةَ المدلولةَ بحرفِ ﴿فِي﴾ ظاهرةٌ في جزءٍ مِنَ الأرضِ، وهو موطنُ حكومةِ الأمَّةِ، وحيثُ تنالُ أحكامُها سكّانَهُ، والأصلُ في الظَّرفيَّةِ عدمُ استيعابِ المظروفِ الظَّرفَ[2].

نُكْتَةُ تقييدِ (الاستخلافِ) بكونِهِ في الأرضِ:

الإيماءُ إلى أنَّ الاستخلافَ يحصلُ في مُعظَمِ الأرضِ

جاء الاستخلافُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مقيَّدًا بلفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ الإسلام سينتشر، ويشيعُ أمرُه في الأرض كلِّها، وهذه بشرى لأهل الإسلام جميعًا، وكلَّما استمسك المسلمون بدينهم، وأحسنوا تمثيلَه والعملَ بمقتضاه، وأخذوا بأسباب الاستخلاف والنَّصر؛ كان لهم من هذه البشرى النَّصيبُ الأوفى.

دلالة (ما) في جملة: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾:

استخلافُ الصّالحين قانونٌ إلهيٌّ مكين

(ما) في قولِهِ ﷻ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مصدريَّةٌ، وهو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: استخلافًا مِثلَ استخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم في تحقُّقِ الوقوعِ[3]، والمعنى: ليجعلنَّهم بدلًا عنِ الكفّار، متصرِّفين في الأرض العرب والعَجَم تصرُّفَ الملوك في مماليكهم، كما استخلفَ اللّهُ تعالى بني إسرائيل في مصر والشّام بعد إهلاك فرعون والجبابرة، وكما استخلف هارونَ، ويوشع، وداود، وسليمان"[4].

بلاغةُ التَّشبيهِ في جملة: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾:

بيانُ إمكانِ المُشبَّهِ، وتأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ الواقعِ مِنَ اللهِ تعالى

المُرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، تشبيهُ استخلافِ المُخاطَبينَ، باستخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، أي: استخلافًا مِثلَ استخلافِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 285.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 190، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 437.
(4) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 119.

تحقُّقِ الوقوعِ، شُبِّهَ ما هو مُنتظَرُ الوقوعِ، بما وقعَ في الماضي في عدم احتمالِ الخلافِ، فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ بيانُ إمكانِ المُشبَّهِ[1]، وتأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، على أنَّ استخلافَ السّابقينَ المُشبَّهَ بهِ قد تحقَّقَ؛ لأنَّهُ وقعَ في الزَّمانِ الماضي الَّذي هو قبلَ زمانِ المذكورينَ، وذلكَ ممَّا يُقوّي وقوعَ استخلافِ المُخاطَبينَ، حيثُ شُبِّهَ بما هو واقعٌ معروفٌ لا يُنازِعُ فيهِ أحدٌ.

تحقُّقُ استخلافِ السّابقينَ، يُؤيِّدُه الواقعُ التّاريخيُّ المبين

توجيهُ القراءاتِ في لفظ: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾:

قرأَ شُعبةُ: (استُخلِفَ) بضمِّ التّاءِ وكسرِ اللّامِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ بفتحِهما[2]، فقراءةُ الجمهورِ على بناءِ الفعلِ للفاعلِ، وأمّا قراءةُ شُعبةَ؛ فعلى بناءِ الفعلِ للمفعولِ، فالموصولُ منصوبٌ على الأوَّلِ، ومرفوعٌ على الثّاني[3]، وقيل: "الكاف نعتٌ لمصدر محذوف، أي: استخلافًا كاستخلاف الَّذين من قبلهم، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول ﴿ٱسۡتَخۡلَفَ﴾، و﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ متعلِّقان بمحذوف صلة الَّذين"[4].

اختلافُ القراءاتِ بالبناءِ للفاعلِ والمفعولِ

بيانُ المُرادِ بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

اختُلِفَ في المرادِ بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فقيلَ: المرادُ بهم بَنو إسرائيلَ، أهلكَ اللّهُ سبحانَهُ الجبابرةَ بمصرَ والشّامِ، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم[5]، وقيلَ: المرادُ بهِم الأُمَمُ الَّتي حكمَتْ مُعظَمَ العالَمِ، وأخافَتْ جميعَهُ،

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً مُـثْرٍ للبيان في السّياق

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 437.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 332.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 434.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 642.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 299.

كالأشوريّينَ، والمصريّينَ، واليهودِ زمنَ سليمانَ ﷺ، والفُرْسِ، واليونانِ، والرّومانِ، وقيلَ: هذهِ الآيةُ تتضمَّنُ خِلافةَ أبي بكرٍ وعُمرَ وعثمانَ وعليٍّ ﷺ، وعلى هذا، فالمرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: صُلَحاءُ الملوكِ، كيوسفَ، وداودَ، وسليمانَ، وذي القرنينِ، وبعضِ مَنْ وليَ جمهوريَّةَ اليونانِ[1]، وقيلَ: المرادُ بهم: مَنْ بعدَ نوحٍ ﷺ، كعادٍ وغيرِهم[2].

إعرابُ قولِهِ تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أثرُ الجارِّ والمجرورِ المُتعلِّقينِ بصِلةِ الموصولِ المحذوفةِ

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ - في قولِهِ ﷻ: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ - مُتعلِّقانِ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المحذوفةِ، والمعنى: كما استخلفَ الَّذينَ استُخلِفوا مِنْ قبلِهم، أو كما استخلفَ الَّذينَ كانوا مِنْ قبلِهم.

دلالةُ إعرابِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾:

بيانُ أثرِ الجملةِ المعطوفةِ على جملةِ الاستخلافِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَمِ[3]، ولذلك فهو "أساس لما قبلَه ولما بعدَه، فالدّينُ يُمَكِّن فيما بينَهم، فلا يكون ثمَّةَ ما يُسَوِّغ ضعفَ اليقين، بل تبقى الحُجَّةُ للقرآن وحدَه، ويدركُه النّاسُ في دَعَةٍ واستقرار، ولا يوجد إيذاءٌ ولا استخذاء ولا استهزاء، ولا تهكُّمٌ على المؤمنين"[4].

سِرُّ تأخيرِ تمكينِ الدّينِ عنِ الاستخلافِ:

التَّمكينُ كالأثَرِ للاستخلافِ، وكلاهما وعدٌ منَ اللهِ للمؤمنين

تأخيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، عن قولِهِ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، معَ كونِهِ أَجَلَّ الرَّغائبِ الموعودةِ وأعظمَها؛ لأنَّهُ كالأثَرِ للاستخلافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 286.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5220.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5221.

المذكورِ، وقيلَ: لأنَّ النُّفوسَ إلى الحُظوظِ العاجلةِ أميَلُ، فتصديرُ المواعيدِ بها في الاستمالةِ أدخلُ[1]، وقيلَ: ذَكَرَ سبحانَهُ الاستخلافَ لهُم أوَّلًا، وهو جَعْلُهم مُلوكًا، وذَكَرَ التَّمكينَ ثانيًا، فأفادَ ذلكَ أنَّ هذا المُلكَ ليسَ على وجهِ العُروضِ، بل على وجهِ الاستقرارِ والثَّباتِ، بحيثُ يكونُ لهُم ولعَقِبِهم مِنْ بعدِهم[2].

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَمِ[3]، وعلى هذا: فاللّامُ في السّياقِ واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، ومعنى تمكين الدّين: سيطرتُه على حركة الحياة، واستيعابُه لمعاملات النّاس ومبادلاتهم، فلا يصدر من أمور الحياة أمرٌ إلّا في ضوئه وعلى هَدْيه، ولا غَروَ أن نُدرك بأنَّ تمكينَ الدّين يعني: توظيفَهُ الإيجابيَّ، وتوفيرَ الظُّروفِ المُثلى لقيامه بدوره في حركة الحياة المتماوجة، والمُتضمِّنة لكلِّ ما هو ناجِع، من حيثُ التَّنظيمُ والصّيانة[4].

التَّمكينُ عُزْوَةٌ وقُوَّةٌ، واستيعابٌ لحركة الحياة الدَّؤوبة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، "أي: وعدَ اللّهُ المؤمنين بأن يجعلَهم خلفاءَه في أرضه، وبأن يجعلَ دينَهم - وهو دينُ الإسلام الَّذي ارتضاه لهم - ثابتًا في القلوب، راسخًا في النُّفوس، باسطًا سلطانَه على أعدائه، له الكلمةُ العُليا في هذه الحياة"[5]، وحيثُ إنَّ تمكينَ الدّينِ أمرٌ موعودٌ بهِ، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبلِ، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغةِ.

تمكينُ الدّينِ أمرٌ مستقبليٌّ واقعٌ بأمر الله وقَدَرِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 393.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 55.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10324 (بتصرّف).
(5) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 147.

نُكْتَةُ توكيدِ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾:

مناسبةُ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الأكيد

أُكِّدَ الفعلُ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ؛ لمناسبةِ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الَّذي وعدَ بهِ اللَّهُ ﷻ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقُّقِ وقوعِ الموعودِ بهِ، وفي ذلكَ مزيدُ تبشيرٍ للمُخاطَبينَ، ومزيدُ حَثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ وقوعِ المَوعودِ بهِ.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿دِينَهُمُ﴾:

المسارعةُ إلى بيانِ كونِ الموعودِ مِنْ منافعِهم

قولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ – في قولِهِ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ – مُقتضَى الظّاهرِ فيهِ أنْ يكونَ بعدَ قولِهِ: ﴿دِينَهُمُ﴾؛ لأنَّ المجرورَ بالحرفِ أضعفُ تعلُّقًا مِنْ مفعولِ الفعلِ، فقُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ عليهِ؛ للإيماءِ إلى العنايةِ بهِم، أي: بكونِ التَّمكينِ لأجلِهم[1]، ومِنْ منافعِهم؛ تشويقًا لهُم إليهِ، وترغيبًا لهُم في قَبولِهِ عندَ وُرودِهِ، ولأنَّ في توسيطِ ﴿لَهُمْ﴾ بينَ المفعولِ وبينَ وصفِهِ – أعني: قولَهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ – مِنَ الإخلالِ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ، ما لا يَخْفَى[2].

نُكْتَةُ إضافةِ (الدّينِ) إلى ضميرِهم: ﴿دِينَهُمُ﴾:

تشريفُ الدّينِ والتَّرغيبُ فيهِ مِنْ مقاصدِ السّياق

إضافةُ الدّينِ إلى ضميرِ المذكورينَ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ إشارةٌ إلى رُسوخِ أقدامِهم فيهِ، وأنَّهُ أَبَدِيٌّ لا يُنسَخُ[3]، وتأليفٌ لقلوبِهم، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ وتثبيتٍ عليهِ[4]، وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لهُم بهِ؛ لأنَّهُ دينُ اللّهِ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الَّذي اختارَهُ؛ ليكونَ دينَهم، فيقتضي ذلكَ أنَّهُ اختارَهم أيضًا ليكونوا أتباعَ هذا الدّينِ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 394.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 304.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.

الموصوفينَ بهذهِ الصِّلةِ، هم الَّذينَ يَنشُرونَ هذا الدّينَ في الأُمَمِ؛ لأنَّهُ دينُهم، فيكونُ تمكُّنُهُ في النّاسِ بواسطتِهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (التَّمكينِ):

التَّمكينُ استعارةٌ للاستقرارِ والثَّباتِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، معناهُ: لَيَجْعَلَنَّ دينَهم ثابتًا مُقرَّرًا، بحيثُ يستمرّونَ على العملِ بأحكامِهِ، ويرجعونَ إليهِ في كلِّ ما يأتونَ، وما يَذَرونَ، والتَّعبيرُ عن ذلكَ بالتَّمكينِ الَّذي هو جعْلُ الشَّيءِ مكانًا لآخرِ - يقالُ: مكَّنَ لهُ في الأرضِ، أي: جعلَها مَقَرًّا لهُ - للدَّلالةِ على كمالِ ثباتِ الدّينِ ورَصانةِ أحكامِهِ، وسلامتِهِ مِنَ التَّغييرِ والتَّبديلِ؛ لابتنائِهِ على تشبيهِهِ بالأرضِ في الثَّباتِ والقرارِ، معَ ما فيهِ مِنْ مراعاةِ المناسبةِ بينَهُ وبينَ الاستخلافِ في الأرضِ[2]، وقيلَ: تمكينُ الدّينِ: انتشارُهُ في القبائلِ والأُمَمِ، وقدِ استُعيرَ التَّمكينُ الَّذي حقيقتُهُ التَّثبيتُ والتَّرسيخُ، لمعنى الشُّيوعِ والانتشارِ؛ لأنَّهُ إذا انتشرَ؛ لم يُخْشَ عليهِ الانعدامُ، فكانَ كالشَّيءِ المُثبَتِ، وإذا كانَ مُتَّبعوهُ في قلَّةٍ؛ كانَ كالشَّيءِ المُضطرِبِ المُتزلزِلِ[3].

دلالةُ وصفِ الدّينِ بالارتضاءِ:

مدحُ الدّينِ والتَّرغيبُ فيهِ، ملمحٌ في البلاغِ بارزٌ فيه

وُصِفَ الدّينُ في قولِ الحقِّ تقدَّستْ أسماؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ بالارتضاءِ؛ لمدحِهِ بهذهِ الصِّفةِ الجليلةِ[4]، وفي ذلكَ أيضًا تأليفٌ لقلوبِهم، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ، ومزيدُ تثبيتٍ عليهِ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾:

تحقُّقُ الارتضاءِ مبينٌ عنِ المُرادِ المقتضى

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ارتضاءَ الدّينِ أمرٌ قد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 65.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.

مضَى، وتحقَّقَ في حكمِ اللهِ ﷻ منذُ الأزلِ، وفي ذلكَ مزيدُ مدحٍ للدّينِ، ومزيدُ ترغيبٍ فيهِ، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فهو دينُ الحقِّ والتَّوحيدِ الَّذي جاءَ بهِ جميعُ الأنبياءِ عليهم السلام.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الافتعالِ: ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾:

المبالغةُ في الرِّضا؛ للمبالغة في رضاه تعالى عنه للبشر

لمّا كانَ سياقُ الوعدِ الكريمِ بالاستخلافِ وتمكينِ الدّينِ والأمنِ، مُشتملًا على مدحِ الدّينِ والتَّرغيبِ فيهِ، أوثِرَتْ صيغةُ الافتعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (الَّذي رَضيَ لهُم)؛ للمبالغةِ في رِضا اللهِ تعالى ذِكْرُهُ عنِ الدّينِ؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تدلُّ على زيادةِ المعنى.

نُكْتَةُ حذفِ عائدِ الصِّلةِ في: ﴿ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾:

الحذفُ إيجازًا في السّياق، مبينٌ عنِ البيان المسوق

حُذِفَ عائدُ الصِّلةِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، ولم يقلْ: (الَّذي ارتضاهُ لهُم)؛ إيجازًا، وحذفُ عائدِ الصِّلةِ كثيرٌ في الكلامِ عندَ دلالةِ السّياقِ عليهِ.

دلالةُ اللّامِ في جملة: ﴿ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾:

تمكينُ الدّينِ ليسعد به الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ

يدلُّ التَّعبيرُ باللّامِ الدّالَّةِ على التَّمليكِ في ﴿لَهُمۡ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾، على أنَّ تمكينَ الدّينِ لأجلِ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ، وفي ذلكَ مزيدُ حَثٍّ لهُم على التَّمسُّكِ بهِ، وتحريكٌ لسوانحِ الشُّكرِ في قلوبِهم.

سِرُّ تأخيرِ الوعدِ بالأمنِ عن الوعدِ بالتَّمكينِ:

الأمنُ مُتوقِّفٌ على القوَّةِ والتَّمكينِ، وكلاهما ضروريٌّ لعزةِ الدّين

أُخِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، عن قولِهِ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المسلمينَ قد كانوا واثقينَ بالأمنِ، ولكنَّ اللهَ قدَّمَ على وعدِهم بالأمنِ، وعدَهم بالاستخلافِ في الأرضِ وتمكينِ الدّينِ والشَّريعةِ لهُم؛ تنبيهًا لهُم على أنَّ سنَّةَ

اللهِ، أنَّهُ لا تأمنُ أمَّةٌ بأسَ غيرِها، حتَّى تكونَ قويَّةً مكينةً مُهيمِنةً على أصقاعِها[1].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

جملةُ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها[2]، فتكونُ داخلةً أيضًا في حيِّزِ الموعودِ بهِ، وهو الاستخلافُ في الأرضِ، وتمكينُ الدّينِ والشَّريعةِ والأمن.

عطفُ السّياق للعبارات، تعدادٌ للأنْعُم المتُوخّاة

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، معطوفٌ على ما قبلَهُ، وهو مُنتظِمٌ معَهُ في سِلْكِ جوابِ القَسَمِ، وعلى هذا، فاللّامُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَمِ، وفي هذا إزالة للمخاوف؛ لذلك أكَّد - باللّام الدّالَّة على القَسَم - أنَّه سيبدِّل خوفهم أمنًا، حيثُ "يؤمِّن سربَهم، ويزيلُ عنهم الخوفَ الَّذي كانوا عليه، وذلك أنَّ النَّبيَّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم وأصحابه، مكثوا بمكَّة عشرَ سنين خائفين، ولمّا هاجروا؛ كانوا في المدينة، يصبحون في السِّلاح، ويمسون فيه"[3].

القَسَمُ على الفعل لمزيد يقينٍ بحصوله في أوانه

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ لأنَّ تبديلَهم مِنْ بعدِ خوفِهم أمنًا أمرٌ موعودٌ بهِ، ووقوعُهُ سيكونُ في المستقبلِ، فيناسبُهُ إيرادُ هذه الصّيغةِ.

حصولُ الأمنِ أمرٌ مستقبليٌّ، موعودٌ به قابلًا

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّبديلِ في قولِهِ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ مبالغةٌ؛ إذِ التَّبديلُ في الخوفِ، حيثُ زالَ الخوفُ منهُم، وحصلَ الأمنُ بدلَهُ،

إيقاعُ التَّبديلِ على الذّاتِ للمبالغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 282.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 56.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/ 404.

وإيقاعُ التَّبديلِ عليهم للمبالغةِ؛ إذ لا تبديلَ للذّاتِ، بل هو مِنْ صفةٍ إلى صفةٍ أخرى[1].

نُكْتَةُ توكيدِ الفعلِ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

مناسبةُ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ، مُبينةٌ عنِ المُرادِ

أُكِّدَ الفعلُ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ - في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ - بنونِ التَّوكيدِ الثقيلة؛ لمناسبةِ التَّوكيدِ لمقامِ الوعدِ الَّذي وعدَ بهِ اللهُ ﷻ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ؛ لِما يُفيدُهُ التَّوكيدُ مِنْ تحقُّقِ وقوعِ الموعودِ بهِ، وفي ذلكَ مزيدُ تبشيرٍ للمُخاطَبينَ، ومزيدُ حثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ وقوعِ الموعودِ بهِ.

توجيهُ القراءاتِ في جملة: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾:

اختلافُ القراءاتِ بتشديدِ الدّالِ وتخفيفِها، إثراءٌ للمعنى

قرأَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وشُعبةُ: (وَلَيُبْدِلَنَّهُم) بتخفيفِ الدّالِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتَّشديدِ[2]، فقيلَ: الإبدالُ والتَّبديلُ لغتانِ بمعنًى واحدٍ، وقيلَ: الإبدالُ: تنحيَةُ جوهرٍ واستئنافُ آخرَ، والتَّبديلُ: تغييرُ الصّورةِ إلى غيرِها، والجوهرُ باقٍ بعينِهِ[3]، وكونه قُرِئَ من (أبدل) ومن (بدَّل)، وهما لغتان، فإنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى، وقراءةُ التَّشديدِ أرجحُ في الدَّلالةِ والإفصاحِ عنِ المرادِ من قراءةِ التَّخفيفِ، وفي فتحِ البيانِ: "وزعمَ ثعلبُ أنَّ بينهما فرقًا، وأنَّه يقالُ: بدَّلته، أي: غيَّرته، وأبدلته: أزلته، وجعلت غيرَه مكانَه، قالَ النّحاسُ: وهذا القولُ صحيحٌ، والمعنى: أنَّه سبحانه يجعلُ لهم مكانَ ما كانوا فيه مِنَ الخوفِ من الأعداءِ أمنًا، ويذهبُ عنهم أسبابَ الخوفِ الَّذي كانوا فيه، بحيثُ لا يخشونَ إلّا اللهَ سبحانه، ولا يرجونَ غيرَه"[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بعبارة: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾:

ربطُ استغراقِ الأمنِ العامِّ بما بعدَ الخوفِ

قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، فيهِ وعدٌ مِنَ اللهِ تعالى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 438.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 333.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 538.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 255.

بتحقيقِ الأمنِ للَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، ولمّا كانَ الأمنُ العامُّ غيرَ مُستغرِقٍ لجميعِ الزَّمانِ، أُشيرَ إلى ذلكَ بإثباتِ الجارِّ، فقالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ﴾، أي: مِنْ بعدِ خوفِهم هذا الَّذي هم فيهِ الآنَ[1].

سِرُّ إيثارِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ على (وَلَيُؤْمِنَنَّهم):

حـصـولُ الأمـنِ بـعـدَ خـوفٍ، نعمةٌ مـنَ الله جليلة

أوثرَ التَّعبيرُ بقولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، ولم يقلْ: (وَلَيُؤْمِنَنَّهُم)، كما قالَ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾؛ لأنَّهم ما كانوا يَطْمَحونَ يومئذٍ إلّا إلى الأمنِ، فكانوا في حالةٍ هي ضِدُّ الأمنِ، فكانَ في إعطائِهم الأمنَ بعدَ الخوفِ مِنَّتانِ عليهم، ولو أُعْطوا الأمنَ دونَ أنْ يكونوا في حالةِ خوفٍ؛ لكانَ الأمنُ مِنَّةً واحدةً[2].

نُكْتَةُ إضافةِ الخوفِ إليهم في قوله: ﴿خَوۡفِهِمۡ﴾:

الإشارةُ إلى كون الخوفِ معروفًا ومُقرَّرًا

إضافةُ الخوفِ إلى ضميرِ المذكورينَ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهُ خوفٌ معروفٌ مُقرَّرٌ[3]، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ حثٍّ لهُم على تحصيلِ أسبابِ هذهِ النِّعمةِ العظيمةِ، وهي حصولُ الأمنِ بعدَ الخوفِ.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَمۡنٗاۚ﴾:

تـعـظـيـمُ أمـرِ الأمـنِ، مَـلْـحَـظٌ قرآنيٌّ مألوف

لمّا كانَ السّياقُ لبيانِ الوعدِ الكريمِ مِنَ الحقِّ ﷻ، وكانَ مِنْ جملةِ الموعودِ بهِ حصولُ الأمنِ بعدَ الخوفِ؛ نُكِّرَ ﴿أَمۡنٗاۚ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾؛ لتعظيمِ شأنِهِ، أي: أمنًا عظيمًا بمقدارِ هذا الخوفِ[4]، ويدلُّ على كونِ التَّنكيرِ للتَّعظيمِ كونُ الأمنِ مُبدَّلًا مِنْ بعدِ خوفِهم المعروفِ بالشِّدَّةِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 305.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 287.

دلالةُ الطِّباق بينَ (الأمنِ) و(الخوفِ):

تـقـابـلُ الصّورتين، يُبرز المِنَّة بالأمن بعد الخوف

في الجمعِ بينَ الأمنِ والخوفِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، مراعاةُ الطِّباقِ بينَهما، وذلكَ مِنْ مُحسِّناتِ الكلامِ؛ لأنَّهُ يجعلُ أمامَ القارئِ صورتينِ مُتقابلَتينِ، يَرى في إحداهما الخوفَ، وهو في أَوْجِهِ، ويرى في الأخرى الأمنَ العظيمَ الشَّأنِ، وبذلكَ تَعْظُمُ المِنَّةُ على المُخاطَبينَ الموعودينَ، بهذا الوعدِ الكريمِ.

بلاغةُ الإيماءِ في التَّمكينِ وتبديلِ الخوفِ أمنًا:

التَّهيُّؤُ لتحصيلِ أسبابِ الوعدِ، مِن ألطاف الله الجَليَّة

في الوعدِ بالاستخلافِ والتَّمكينِ وتبديلِ الخوفِ أمنًا، في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾، إيماءٌ إلى التَّهيُّؤِ لتحصيلِ أسبابِ الوعدِ، معَ ضمانِ التَّوفيقِ لهُم، إنْ هم أَخَذوا في ذلكَ، وأنَّ مِلاكَ ذلكَ، هو طاعةُ اللهِ والرَّسولِ ﷺ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾[1].

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ وفائدتها:

تَـراوحُ الجملةِ بينَ الاستئناف أو الحال، إثراءٌ للدَّلالة المتاحة

قولُهُ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، يجوزُ أنْ يكونَ مستأنفًا[2]، وفائدةُ الاستئنافِ: بيانُ المُقتضي للاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ[3]، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنَّ سائلًا قالَ: ما حالُهم حتَّى استحقّوا بسببِها استخلافَهم وأمنَهم مِنَ الخوفِ؟ فقالَ تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾، أي: استمرارُهم على عِبادتي اقتضَى ذلكَ[4]، ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ الحالِ، والتَّقديرُ: وعدَ اللهُ المؤمنينَ في حالِ عِبادتِهم وإخلاصِهم للهِ ﷻ، لَيَفْعَلَنَّ بهِم كذا وكذا[5]، وفائدةُ الحالِ تقييدُ الوعدِ بالثَّباتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 283.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 51.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 440.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 51.

على التَّوحيدِ[1]، وقيلَ: جملةُ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هم يَعبُدونَني، والجملةُ استئنافيَّةٌ تقتضي المدحَ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ على أنَّ الَّذينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ، الموعودينَ بما ذُكِرَ، مُستمِرّونَ على عبادةِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ[3]، وفي إفادةِ الاستمرارِ، تعريضٌ بالمنافقينَ؛ إذ كانوا يؤمنونَ، ثمَّ ينقلبونَ[4].

الدَّلالةُ على استمرارِ العبادةِ، يُناسب المضارعيَّة

سِرُّ التَّعبيرِ بضميرِ المتُكلِّمِ وحْدَهُ:

عُبِّرَ بضميرِ المتكلِّمِ وحدَهُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، دونَ ضميرِ الغائبِ، ودونَ ضميرِ العظَمةِ، فلم يقلْ: (يَعبُدونَهُ)، أو (يَعبُدونَنا)، وفي ذلكَ مِنَ اللَّطافةِ ما لا يَخْفَى[5]؛ لِما في صيغةِ التَّكلُّمِ، مِنْ زيادةِ تعيينِ المعبودِ بالحقِّ، ولِما في صيغةِ الإفرادِ، مِنَ التَّنصيصِ على الوحدانيَّةِ.

مناسبةُ ضميرِ المتكلِّمِ لسياقِ التَّوحيدِ، مفيدٌ في البيانِ

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مستأنفًا[6]، ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِنْ فاعلِ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، أي: يَعبُدونَني موحِّدينَ[7]، وفائدةُ الحالِ تقييدُ العِبادةِ بهذهِ الحالةِ؛ لأنَّ المشركينَ قد يَعبُدونَ اللهَ، ولكنَّهم يُشركونَ معَهُ غيرَهُ[8]، ويجوزُ أنْ يكونَ بدلًا مِنَ جملةِ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ الواقعةِ حالًا[9].

تنوُّعُ التَّأويلِ الإعرابيِّ مفيدٌ في توسيعِ المعاني

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 434.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 440.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 394.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(9) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 435.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾:

الـدَّلالـةُ على استمرارِ انتفاءِ الإشـــراكِ، مناسبٌ لصيغة المضارع

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، على استمرارِ انتفاءِ الإشراكِ باللهِ ﷻ، كما هو مُقتضَى التَّوحيدِ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ.

نُكْتَةُ نفيِ الإشراكِ، بعدَ إثباتِ العِبادةِ:

التَّـأكـيـدُ على الإخـــلاصِ في العِبادةِ مَلْمحٌ قرآنيٌّ مألوف

في تعقيبِ العِبادةِ بنفيِ الإشراكِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ تأكيدٌ على ضرورةِ إخلاصِ العِبادةِ للهِ ﷻ، والمعنى: لا يُشركونَ في عِبادتِهم إيّايَ الأوثانَ والأصنامَ، ولا شيئًا غيرَها، بل يُخلِصونَ لي العبادةَ، فيُفرِدونَها إليَّ دونَ كلِّ ما عُبِدَ مِنْ شيءٍ غيري[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيْـًٔا﴾ في السّياق:

الـسّـيـاقُ يستوعبُ ألوانَ الشِّركِ الظّاهرِ منها والخفيّ

تنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾، في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ للتَّعميمِ، والمعنى: لا يُشركونَ بي شيئًا مِنَ الأشياءِ أيًّا كانَ، ويدلُّ – على كونِ التَّنكيرِ للتَّعميمِ – سياقُ التَّوحيدِ وإفرادِ اللهِ ﷻ بالعِبادةِ، ومفادُ قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، أي: لا يشركون بي في أيِّ مَلمحٍ من ملامحِ العبادةِ الظّاهرةِ والباطنةِ، فلا شركَ في عبادةٍ، ولا طاعةٍ، ولا عملٍ، بل يكونُ التَّعبُّدُ كلُّه ممحَّضًا للهِ وحدَه، فلا يطيعونَ مخلوقًا، ويتركونَ طاعةَ الخالقِ، وإذا خُيِّروا بين عصيانِ المخلوقِ الكَنَودِ، وعصيانِ الخالقِ للوجودِ؛ اختاروا عصيانَ المخلوقِ؛ حتّى يستمرَّ لهم السُّلطانُ في الأرضِ، كما وعدَهم اللهُ[2].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

قيلَ: الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 209.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5221 (بتصرّف).

ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ للعطفِ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَعَدَ﴾، أو على مُقدَّرٍ، أي: (مَنْ آمنَ هم الفائزونَ، ومنْ كفرَ ... إلى آخره)[1]، وقيلَ: الجملةُ معطوفةٌ على ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾؛ لأنَّ معناهُ: (ومَنْ لم يَعْبُدْني)[2]، وقيلَ: الواوُ استئنافيَّةٌ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ سيقَتْ لبيانِ حالِ مَنِ ارتدَّ مِنْ هؤلاءِ المؤمنينَ الموعودينَ[3].

تنوُّعُ دلالةِ حرف المعنى، دليلٌ على دقَّة المعنى وسعته

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكُفْرِ والفِسْقِ عَقِبَ ما سبقَهُ:

جملةُ ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، تحذيرٌ بعدَ البِشارةِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ، في تعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ والعكسِ؛ دفعًا للاتِّكالِ[4]، فيكونُ في الكلامِ مقابلةٌ حسنةٌ.

تعقيبُ البِشارةِ بالنِّذارةِ، من أساليبِ البلاغِ الحكيمة

معنى (مَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

تحتملُ (مَنْ) في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أنْ تكونَ موصولةً، وتحتملُ أنْ تكونَ شرطيَّةً[5]، وعلى الثّاني تكونُ الفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ رابطةً لجوابِ الشَّرطِ، وعلى الأوَّلِ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ والمعنى المسوق، مَفادُهُ أنَّ "الَّذي يترك الإيمانَ في حال عِزّه وقَهْره، وعدمِ وجودِ الأسباب المانعةِ منه، يدلُّ على فساد نيَّته، وخُبثِ طَويَّته؛ لأنَّه لا داعيَ له لترك الدّين إلّا ذلك"[6].

تَـــراوحُ الأداةِ بـينَ الموصـوليَّة والشَّرطيَّة، يُبرز الـدَّلالـة ويـوجِّـه المعنى

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 396.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 306.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 441.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 395.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 573.

المرادُ بالكفرِ في جملة: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

المُـرادُ بالكفر مقابلُ الإيمانِ، عـلى ظـاهـرِ السّياق المدرج

الظّاهرُ أنَّ المُرادَ بالكفرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكفرُ المُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ؛ لأنَّ الظّاهرَ أنَّهُ متى أُطلِقَ الكفرُ؛ كانَ المُرادُ مقابلَ الإسلامِ والإيمانِ[1]، وقيلَ: معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: ومَنْ كفرَ بهذهِ النِّعَمِ، والمُرادُ بالكفرِ كُفرانُ النِّعمةِ؛ لأنَّهُ تعالى قالَ عَقِبَهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، والكافرُ باللهِ فاسقٌ، بعدَ هذا الإنعامِ وقبلَهُ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿كَفَرَ﴾:

الـدَّلالـةُ على الرُّسوخِ في صفةِ الكفرِ، تدقيقٌ في الوصف بليغ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى الرُّسوخِ في صفةِ الكفرِ، أي: اتَّصفَ بالكفرِ بأنْ ثبتَ، واستمرَّ عليهِ، ولم يتأثَّرْ بما مرَّ مِنَ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فإنَّ الإصرارَ عليهِ بعدَ مشاهدةِ دلائلِ التَّوحيدِ، كفرٌ مُستأنَفٌ زائدٌ على الأصلِ، وهذا على أنَّ المرادَ استمرارُ الكافرِ الأصليِّ على كفرِهِ، وقيلَ المُرادُ: كَفَرَ بعدَ الإيمانِ، فيكونُ الكلامُ في المُرتدِّ، وقيلَ المرادُ: كَفَرَ بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ[3]، فلا يكونُ المُرادُ بالكفرِ مقابلَ الإيمانِ.

تعيينُ المُشارِ إليه ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾:

احتمالُ رجوعِ الإشارةِ إلى عدَّةِ مَعانٍ، مفيدٌ في الإبانة

اختُلِفَ في تعيينِ المُشارِ إليهِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، فقيلَ: المُشارُ إليهِ هو الوعدُ، والمعنى: ومَنْ كفرَ بعدَ الوعدِ[4]، وقيلَ: المُشارُ إليهِ هو الاستخلافُ[5]، وقيلَ: الإشارةُ إلى الإيمانِ المُعبَّرِ عنهُ هنا بـ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، والمُعبَّرِ عنهُ في أوَّلِ الآيةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 65.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 300.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 516.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307.

بقولِهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ومَنْ كفرَ بعدَ الإيمانِ وما حصلَ لهُ مِنَ البِشارةِ عليهِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيدِ:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ، من فصيح البيان

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد ذلك الوعدِ الكريمِ من مِنَحِ اللهِ العظيم، بما فُصِّل منَ المطالبِ العاليةِ، المستوجبةِ لغايةِ الاهتمامِ بتحصيلها، والسَّعيِ الجميلِ في حيازتِها[2]، وذلك أنَّ الكُفران بعد الإغداق بمختلف المِنح، والنُّكرانَ بعد الإغراق في النِّعم المادّيَّة والمعنويَّة، تَمَرُّدٌ يعكس خبثَ الطَّويَّة، وقد عَبَّر عنه السّياق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ المُشارِ إليهِ، أي: ومَنْ كفرَ بعدَ ذلكَ الأمرِ العظيمِ الشَّأنِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ إلى بُعْدِهم في الغوايةِ والضَّلالِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ اللهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُشارَ إليهم - وهم الكفرةُ - قد تناهَوا في الغَيِّ والضَّلالِ، وأوغَلوا فيهما إيغالًا شديدًا، فهم بُعَداءُ عنِ الحقِّ والخيرِ، تائهونَ في تيهِ الغوايةِ والضَّلالِ[3]، وفيهِ أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّهم لا يستحقّونَ عِزَّ الحُضورِ، ولذلكَ يُشارُ إليهم إشارةَ المُبغَضِ البعيدِ.

بلاغةُ القصرِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

المُرادُ أنَّهم الكاملونَ في الفِسْقِ، وذلك غايةُ التَّبشيعِ للوصف

قولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، معناهُ: فأولئكَ هم الفاسقونَ الكاملونَ في فِسْقِهم[4]، ومعنى الكمالِ مستفادٌ مِنْ ضميرِ الفصلِ وتعريفِ الخبرِ، المُفيدَينِ للقَصْرِ والتَّخصيصِ، كقولكَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 18/ 288.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 307، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 191.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 113.

هو الرَّجلُ كلُّ الرَّجلِ[1]، وكأنَّ المعنى: إنْ أردتَ أنْ تعرفَ حقيقةَ الفاسقينَ، فهم النّاسُ الَّذينَ بلغَكَ أنَّهم كَفَروا.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

الإتيـانُ بـلامِ الـجـنـس؛ للـمبالـغـة في الإخبار عنهم

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ للجنسِ، وفائدةُ الإتيانِ بلامِ الجنسِ المبالغةُ في ادِّعاءِ كونِهم الفاسقينَ دونَ غيرِهم، وكأنَّ جنسَ الفاسقينَ مُنحصِرٌ فيهِم، لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ غيرِهِ:

الـفِـسْـقُ هو الـخـروجُ مِـنْ مَـنْـفَـذٍ ضـيِّـقٍ، واسـتـعـمـالُـه مُبينٌ عنِ المُرَاد

في استعمالِ لفظِ (الفِسْقِ) دونَ غيرِهِ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ لطافةٌ؛ لأنَّ مادَّةَ الفِسْقِ تدلُّ على الخروجِ مِنَ المكانِ مِنْ مَنْفَذٍ ضيِّقٍ[3]، وكأنَّ في ذلكَ إشارةً إلى أنَّهم بَذَلوا غايةَ وُسْعِهم في الخروجِ مِنَ الدّينِ، وتجشَّموا الصِّعابَ في سبيلِ ذلكَ.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»